غدا هو اليوم الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ . انها ذكرى السنة الرابعة عشرة لبروز الثورة الفلسطينية . وهناك اعلام ، في منطقة البسطة ، حيث تعيش عائلتي وحيث تسيطر عناصر من قيادة الكفاح المسلح الفلسطيني والحركة الوطنية اللبنانية ، وجميعها تحتفل بالحدث . وغدا سيقوم ١٠ الاف فدائي بمسيرة في استاد الرياضة ، ومن المتوقع ان يحضر مئة الف مشاهد . والليلة سأرى عما قريب عائلتي ، على الاقل تلك الاجزاء منها التي لم تطرد من البلاد او تقتل .

لا بد ان تكون امي سيدة عجوزا متغضنة. شقيقي مع الثورة . ولن اعرف اعمامي وعماتي واخوالي وخالاتي . وابناء العمومة وبنات العمومة وازواجهم وزوجاتهم لم ارهم ابدا . والليلة اتأمل في ذكرى موت والدي ، والسخرية الملازمة له . ففي مثل يوم غد لاربع عشرة سنة خلت مات والدي ، في اليوم نفسه الذي ولدت فيه الثورة .

اعرف كيف احتفل بذكرى ولادة الثورة . ولكن كيف اندب موت ابي ؟ كنت اعرف كيف اندب ابي لو انه مات باسباب طبيعية ، بمرض معين معترف به ، او من الشيخوخة ، او حتى لو مات موتا عنيفا . الا ان ابي مات من شيء آخر . فقد مات من عدم قدرته على الاجابة عن السؤال ، الذي لا بد وان يكون طرحه تكرارا طوال تلك السنين منذ عام ١٩٤٨ ، وله علاقة بلماذا حدث كل هذا لنا .

في ١٩٤٨ كان ابي يعيش في حيفا . كان فقيرا ، كمعظم الفلسطينيين . وكمعظم الفلسطينيين كان ابيا كذلك ، لأنه يعيش في مدينته ، ولديه عمله الصغير ، ويلعب النرد مع اصدقائه في مقاهي الشوارع الجانبية من المدينة ، ويعيل عائلته . وبعد ١٩٤٨ ، نقل الى عالم اعتبر فيه غير موجود في مخيم للاجئين حيث تحولت انسانيته وهويته الى مجرد كسرة . كان الانتقال مفاجئا ، لا يمكن تفسيرة الى حد انه كان يخنقه . وكلما فكر في الامر ، كلما مزقت الفكرة روحه الى نتف من الجراح النازفة ، من اللافهم المشدوه . وفي بداية كل شهر ، كان يصطف عند مخزن الأغذية ليتلقى حصته من الأغذية ، التي تكفينا اسبوعا على وجه التقريب . وبعد ذلك كنا نجوع ، ونبرد ونشعر بالوحدة .

لم يعرف لماذا انهار كل شيء حوله . ولم يستطع التعامل مع تحوله المفاجيء من فلسطيني عربي ابي مكتف بذاته ، الى شيء غير موجود ينتمي الى شعب يصار الى دفعة دفعا خارج صفحات كتب التاريخ . ولما كان مجهزا فقط بصوره التقليدية ، التي افادته في تحديد مجتمع الفلاحين الذين كان هو نتاجا له ، فقد عجز عن تفسير لماذا سلب حقه في الحياة في بلاده .

كان شعر والدي اسود فاحما في ١٩٤٨ ولكنه في اوائل الخمسينات كان يتحول الى لون الثلج . كان يتغضن،واماله ، كصوته ، كان يفقد حدته . لم تكن لديه اجوبة واراد ان يموت فحسب .

□

ومع هذا اعلم انني لا يجب ان اهتم . لقد حشد ابي ماضيه واستجاب له ، على افضل طريقة يعرفها ، في الحياة وفي الموت . وانا حشدت ماضي . وعندما افكر فيه ، اجد انني نموت